جامعة محمد بوضياف

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم الفلسفة

مقياس : منهجية البحث الفلسفي **السنة الثانية**

السداسي الرابع **د : بوزبرة عبد السلام**

المحاضرة السادسة :06

المنهج الأركيولوجي عند ميشال فوكو

تميزت الفلسفة المعاصرة بتعدد المناهج ويعد المنهج الاركيولوجي الذي وضع آلياته الفيلسوف الفرنسي ميشل فوكو (1926-1984) احد ابرز المناهج الفلسفية التي امتدت آلياته إلى مختلف الدراسات الاجتماعية والإنسانية كما فوكو من أهم فلاسفة النصف الأخير من القرن العشرين،تأثر بالبنيويين وكان شديد التأثر ب نيتشه والجينيالوجيا. والذي سنأتي على التفصيل فيه لاحقا. فماذا يعني فوكو بهذا المنهج؟

في تحديد مفهوم الاركيولوجيا

تعني الأركيولوجيا العلم الذي يُعنى بدراسة الحضارات التي شيَّدَها الإنسان قديما، باستعمال الأدوات والوسائل المختلفة بهدف الحفر والتَّنقيب عن الآثار والمعالم التي خلفتها تلك الحضارات، كما تتضمن كلمة أركيولوجيا البحث في الأصول الأولى للتشكل والبدايات الأولى لنشأة الفكرة، إنها إذن بحث في التاريخ، بهدف الكشف ما يسمى الشروط القبلية التي تحدد نمط معين في فترة تاريخية معينة، سواء كان هذا النمط معرفي أو فلسفي أو تاريخي. وارتبطت لفظة "أركيولوجيا" بالفلسفة التحليلية المعاصرة التي تحاول تقويض الأصول الأولى لنشأة المعرفة وتفكيك الحقيقة الميتافيزيقية التي سيطرت على الخطاب الفكري الغربي، في محاولة لتجاوز الفلسفة القديمة وأطروحاتها حول القيمة والحقيقة والمركز، كما ارتبط المنهج الأركيولوجي في الفكر الغربي المعاصر بالفيلسوف الفرنسي "ميشيل فوكو" الذي حاول من خلال أطروحاته المختلفة البحث عن البنى المعرفية والأصول الفكرية، ولكنه لم يستعمل اللفظ بالمعنى القديم لكلمة أركيولوجيا باعتبارها البحث عن الأصل لتمجيده والانطلاق منه لتشكيل معرفة جديدة، بل البحث عن بدايات نسبية لتشكل المعرفة. وهو بذلك محتاج إلى التاريخ من اجل تبدد خرافة الأصل، وخرافة البداية الأولى كما سنوضحه لاحقا.

يأخذ الحفر طريق ومنهج حيث يتأسس هذا المنهج على محاولة رصد ووصف الأساليب التي استطاعت بها قوة مهيمنة أن تشكل المعرفة وتسكنها في ممارسات أ تصبح راسخة في اعتقاد كحقيقة عليا في إطار ثقافة ما في زمان ومكان معينين. والمنهج اركيولوجي هو حفري معرفي يبحث ما وراء النص بقراءة ما يخفيه ويسكت عنه،أي يهتم هذا المنهج بالبحث في الوقائع والأحداث والوثائق التاريخية وقراءتها مجددا بشكل مختلف يهدف بالكشف عن شيء غير معروف سابقا. لذا تسعى "الأركيولوجيا" بصفتها منهج للحفر، والتنقيب والتعرية، في فعاليات الحياة ونصوص الوثائق والخطابات المحفوظة، إلى الكشف عن النظم المعرفية، التي تحكمها وتنظّمها في سياق واحد، كما يهدف البحث الاركيولوجي في مجال النصوص التاريخية الى الكشف عن ما يتضمنه من أحداث مدونة, أو أخرى مسكوت عنها، أو أُقصيت أو قمعت الحقائق فيها، والبحث في طبيعة الظروف التي أنتجت نصوصه وفقها والكشف مكنوناتها،إضافة إلى ذلك، فان منهج البحث الأركيولوجي يحفر وينقّب في الوثائق الرمادية، كما يعبر عنها المفكر الألماني "فريدريك نيتشه"، وهي الوثائق المهملة التي من غير المتوقع،أن يقرأ فيها ما يفيد أو يخرج عنها بمعلومة، مثل وثائق العقود المختلفة، المبرمة في حقبة تاريخية معينة، بين الدولة والفرد، أو بين الأفراد في المجتمع، أو بين مجتمعات متعددة.

استعمل "فوكو" مفهوم الأركيولوجيا لأول مرة في كتابه "تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي" بالإضافة إلى أن كتابه "مولد العيادة" كان يحمل عنوانا فرعيا وهو" أركيولوجيا النظرة الطبية وبعد نشر "فوكو" "الكلمات والأشياء" حمل هو الآخر عنوانا فرعيا، وهو "أركيولوجيا العلوم الإنسانية"، ثم "اصدر كتابه المعنون بـ:"أركيولوجيا المعرفة" الذي أوضح فيه الآليات التي اعتمدها في بلورة المنهج الأركيولوجي . استخدم فوكو هذا المفهوم للمنهج الذي وضعه في دراسته وتحليله للبنى المعرفية الغربية، حيث يُقر في" أركيولوجيا المعرفة"، أنه أطلق على منهجه " اسم الحفريات"، التي ستعمل على وصف الممارسات الخطابية بطريقة مخالفة لباقي المناهج التاريخية، ففي نظر "فوكو" أن المناهج المعمول بها غير قادرة على وصف الخطاب وتحليله بالكيفية اللازمة " وانطلاقا من هذا يبرر "فوكو" اعتماده على المنهج الأركيولوجي في قوله : " فقد سبق أن وجدت مناهج كثيرة قادرة على وصف اللغة و تحليلها بحيث لا يمكن لأي احد أن يزهو بنفسه ويُعجب بها، مُدعيا أنه يُضيف منهجا جديدا إليها . فالمناهج المعتمدة في الدراسات التاريخية لا تخرج عن كونها تائهة بين جدران النسقية الرتيبة. ومن هنا يطرح فوكو سؤالا مهما فيما يخص الجديد الذي ستقدمه الأركيولوجيا مقارنة بالمناهج الأخرى يقول فوكو : فماذا بوسع الحفريات أن تقدمه بالنَّظر إلى ما لم يكن في وسع المناهج الوصفية الأخرى أن تقدمه "يُجِّيب فوكو عن هذه الإشكالية بأنه استعمل لفظ الأركيولوجيا للدلالة على وصف الوثيقة، ولم يقصد اكتشاف بداية، أو الكشف عن عظام وهي رميم .

يعرف فوكو الأركيولوجيا بقوله : " أمكننا استنادا إلى قانون الألفاظ والذي لا يُطابق قانون علماء اللغة أن نطلق على تلك الأبحاث اسم حفريات، وهو لفظ لا يَتضمن أي محاولة للجري واللهث وراء البدايات كما لا يقرن التحليل بأي سبر جيولوجي بل يدل على الفكرة الأساسية والمحورية العامة لوصف هدفه الماقيل في مستوى وجوده وفي مستوى الوظيفة العبارية التي تمارس عليه ،والتشكيلة الخطابية التي ينتسب إليها والمنظومة العامة التي لاحتفاظه وظهوره فالحفريات تصف الخطابات كممارسات محددة في عنصر نظام الاحتفاظ والظهور.

يتضح من هذا، أن منهجية النقد الحفري تسعى للكشف عن الأسس التاريخية التي تشكلت في ظلها الخطابات من خلال تحليل القطائع التي شهدتها مختلف الإبستيميات بحكم أن الخطاب هو ما تسعى الأركيولوجيا إلى وصفه وتحليله ودراسته، إضافة إلى أنها تهدف أساسا إلى رصد نظم عن طريق تحليل الخطاب في مستوى ظهوره وأفوله واندثاره، ويتمثل ذلك في تصوُّر تاريخ الثقافات كما لو كان سلسلة من النُّظم المعرفية تتقاسم لفترات تاريخية دائرة الحقيقة ،وبهذا يكون التاريخ الأركيولوجي، دراسة نقدية لمختلف الخطابات التي شكلت في فترة ما مركز الحقيقة. إن التاريخ عند "فوكو" عبارة عن سلسلة من الأحداث المتقطعة التي لا تعرف الاتصال، فكل مرحلة تاريخية لها من الخصائص ما يجعلها تتمَيز عن باقي المراحل التي تليها؛ وبناء على هذا، تتجه الأركيولوجيا نحو تلك الانفصالات التي يشهدها الخطاب ، بالنظر إلى أهميتها في بلورة خطاب الحقيقة.

لقد قسم فوكو تاريخ الفكر الغربي ثلاث حقب كبرى اصطلح عليها تِبَاعًا : عصر النهضة، العصر الكلاسيكي و العصر الحديث،دون أن يكون بين هذه المراحل أي اتصِّال أو استمرار، بل فواصل وقطائع استنادا إلى هذا، سيعمل فوكو على تتبع مختلف المعارف التي تكونت وظهرت في الحقب الزمانية الكبرى والمختلفة، تتبُّعا تاريخيا وفقا لمنظور تحليلي أركيولوجي، كاشفا من خلاله عن البُنى الداخلية لمجمل الخطابات، بعيدا عن السياق التاريخي بالمفهوم الكلاسيكي الذي تعتمده المناهج الأخرى

الأركيولوجيا وتاريخ الأفكار

يتداخل مفهوم الأركيولوجيا مع مفهوم تاريخ الأفكار إلى حد يصعب معه الفصل بينهما، ويرى "فوكو" إن تاريخ الأفكار لا يقف على جوهر المعارف والخطابات، بل يكتفي فقط بالسرد التاريخي، واقفا على الهوامش دون التَّعّمق في الماهية الأساسية التي تحتويها تلك المباني المعرفية التي أخضعت للتحليل. تاريخ الأفكار يهتم بتحليل الآراء والتعليق عليها دون تحليل المعرفة، والكشف عن بنياتها الداخلية التي جعلتها تظهر، ودون أن يُعنَى بتحليل الحقيقة المتضمنة في الوثائق التي يعرضها على الدراسة والوصف، إضافة إلى إغفاله للخلفيات التاريخية لتلك الوثائق المحللة هذا ما يبعده عن الدقة في النتائج.

يقوم مؤرخ الأفكار بتتبع دائم لنشأة المفاهيم المختلفة، وكيفية انتقالها من حقل إلى حقل آخر فيحين أن الوصف الحفري، لا يُمت إلى ما تم ذكره من خصوصيات تاريخ الأفكار بأي صلة فالمهمة الأساسية للأركيولوجيا، لا تتمحور في البحث عن الأفكار والمعارف التي من شأنها أن تظهر أو تختفي في خطاب ما، بل إن غايتها تتجسد في تحديد هذه الخطابات من حيث هي ممارسات تحكمها قواعد مُعينة، فهي تنظر للخطاب على أنه وثيقة ، فيكون معول التحليل الأركيولوجي، مُوجها إلى مختلف البنى الخطابية. والأركيولوجيا ليست مبحثا في التاريخ بما هو تحقق عيني في لحظة ما يتميز بالاكتمال، ولكنه البحث في الأصول المعرفية والقواعد الصورية لتشكل الخطابات التي تزعم قول الحقيقة عن الإنسان في فترة تاريخية معينة، فهي "أي الأركيولوجيا عند فوكو" تسلم بأن خطاب المعرفة يمكن أن يُدرس كظاهرة موضوعية ومستقلة، وهي لا تهدف إلى تحديد الأفكار والتمثلات والصور والموضوعات والهواجس التي تختفي أو تظهر في الخطاب، ولكن عن تلك الخطابات نفسها باعتبارها ممارسات تخضع لقواعد، وهذا ما يعني بوضوح التخلي عن دراسة الخطاب كما لو كان مجموعة من العناصر الدالة التي تحيل إلى قضايا ومضامين وتمثلات ومقاصد، مصدرها الذات والذرات.

الأركيولوجيا محاولة تقويض " مبدأ النسقية"

يرى فوكو إن علم التاريخ كباقي العلوم لا يتكون من الحقائق والأحداث التاريخية التي وقعت بالفعل في الماضي، بل تدخل فيه أيضا الأخطاء والأحداث المزيفة التي وقع فيها صناع التاريخ. وهي أخطاء قد تكون إيجابية، وتسهم في تطوير هذا العلم، ضمن هوية انتماءه لعلوم الإنسان، فالمعرفة التاريخية معرفة شذرية، تعرف "التشظي" و"لتمفصل" والقطائع أيضا فلا وجود لمسار تاريخي خطي متصل. وهي تساعد على تجدد الخطاب التاريخي، في طريق بحثه عن "الحقيقة"، بشكل بعيد عن الإطلاقية أو الغائية التي ترسم مسارا خطيا للأحداث التاريخية نحو غاية ما، باستعمال كلمات ولغة منتجة لمعنى وحيد داخل نسق معرفي مغلق، وذلك لكون هذه الغائيات التي تستند إلى فلسفة التاريخ، أو لتصورات دينية لاهوتية، تعتبر العقل هو جوهر العالم والكون. وأن تطور تاريخ البشرية، عبر الحقب ولعصور، ما هو سوى تجل مادي لهذا الجوهر الروحي والفكري. وفي هذا نفي تام للدور الغرائز وأهواء الجسد وحاجياته في إنتاج المعرفة وأدوات العمل والإنتاج، فعملوا على مناقضة كل ما هو شائع بينهم بدافع الرغبة في تملك السلطة والسيطرة على الأخرين.

الأركيولوجيا إعطاء أهمية كبرى للحدث التاريخي

يرى فوكو أن علم التاريخ اليوم، يجب أن ينتج بشكل كثيف عن الأحداث التاريخية في تعدديتها، الأحداث الهامة منها والأقل أهمية، الأحداث التي تخص المركز والهامش أيضا. حيث أن علم التاريخ "لا ينظر إلى أي حدث، بدون أن يجدد السلسلة التي هو جزء منها، أو بدون أن يحدد نوع التحليل، الذي ترتبط به هذه الأخيرة، ودون أن

يحاول أن يعرف، انتظام الظواهر وحدود احتمال ظهورها. التاريخ حسب فوكو لم يعد يبحث في فهم الأحداث ضمن سلسلة غائية، وسيرورة كبرى تطرح مشاكل العلية والسببية والحرية، في مسار متصل، أملته الضرورة المثالية، بل ضمن سلاسل مختلفة ومتقاطعة ومتنافرة في غالب الأحيان، وأيضا مستقلة عن بعضها البعض، سلاسل تمكن من معرفة مراكز الحدث وهوامشه، والتفاعلات والصراعات الموجودة بينها، وكذلك الأحداث ذات الأهمية القصوى، والأحداث النادرة.

ونلمس في هذا دعوة لرفع الوصاية التي تفرضها فلسفة التاريخ على علم التاريخ، حيث "ينبغي أن نعتبر، أن هناك سلما من أنماط الأحداث المختلفة، التي ليست لها نفس الأهمية، ولا نفس الامتداد الزمني ولا نفس القدرة على إحداث تأثيرات". فالمطلوب هو إعادة تشكيل الخيوط، التي تربط بين هذه الأحداث، وتجعل بعضها يتولد عن البعض. وهذه بعض من المرتكزات المنهجية، والكوابح التي تمنع الوصول إلى المعرفة التاريخية "الحقيقية."

المصادر والمراجع

- ميشيل فوكو، إرادة المعرفة، ترجمة مطاع الصفدي، جورج أبي صالح، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1990 .

- ميشال فوكو، نظام الخطاب، تر: محمد سبيلا، بيروت، ط3، 2012.

- ميشال فوكو ، جينيالوجيا المعرفة، ترجمة عبد السلام بنعبد العالي وأحمد السطاتي، دار توبقال. الطبعة الأولى 1988.

- فوكو ميشال، حفريات المعرفة، ترجمة سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، البيضاء، 1987.

- الزواوي بغورة ، مفهوم الخطاب في فلسفة ميشال فوكو ، المجلس الأعلى للثقافة، 2000.

- جيل دلوز .المعرفة والسلطة .مدخل لقراءة فوكو .تر .سالم يفوت .المركز الثقافي العربي. ،الدار البيضاء المغرب 1987.